الجزء السادس

الرسائل 5-6

الغالية رجاء،

ماأسرع تقلب الأحاسيس! ها أنذا أستعيد ما خططته لك البارحة، فـلا أراه يعبر بصدق وإخلاص عن اختلاجات مشاعري..

لماذا أردت أن أزعجك بتلك النغمة الكئيبة؟ ما أسخفني! لعل نفسي قـد ألفـت الألم فاذا ما فارقها تألمت لفراقه.. أو لعلها تفضل عن نسيمات الربيـع زعـازع الشتاء.. ولا تجد معنى للحياة حتى تلسعها صرصر رياحها العاتية..

رغبة هائمة تتملكني في الشرود الى البحر، الى المرتفعـات.. أحـس معهـا بخافقي مجنحا يتحفز للوثوب ولكنه أسير بين أضلعي.. أريد أن أفعـل شـيئا ولا أقوى على فعل شيء.. ملتهب خيالي.. فـاتر جـسدي حتـى عـن إداء أبـسط الحركات..

أتراه المناخ؟..

تخلّصت من ذيول التدريس في هذه العطلة الربيعية، فارتعش بـالفرح قلبـي وقلت الآن أستنشق الهواء نقيا عبقا بالحرية.. ولكن لا.. المشاغل تنبع وأنت يحلو لك أن تستلقي وتحلمي بقصة تخترعينها، أو تعالجي شعرا منثورا يريد أن ينبثـق في هدأة فكرك ويسفر متدفقا نقيا..

ومع ذلك أظن أنني فعلت شيئا مجديا رغم التثاؤب والنعاس.. فلقـد وضـعت خطة جديدة لتدريس قواعد اللغة العربية (شبيهة الى حد ما بالطريقة التي نتعلمهـا في ترتيب اللغة الإنجليزية) انتقاما لما تحطم به رأسي وجرح صدري من تعقيدات لا مبرر لها وأساليب عقيمة ما أنزل الله بها من سلطان.. لماذا أنـا أكتـب دون أخطاء لغوية دون أن أقرأ تلك الكتب السمجة؟ كنت أدهش أستاذة اللغة العربية في القدس، في اكتشاف أين يكمن خبر الجملة ولو كان على بعد أربعة أسـطر مـن المبتدأ.. وأعرف تصنيف الجمل الى أساسية وفرعية، ومكان الفرعية من الأساسية دون عناء.. ولا أكتب جملة ناقصة أبدا لأنني أعرف سر اللغة كما كـان يفهمـه

الأوائل الذين كتبوا المعلقات، وخطبوا، وفهموا لغة القرآن.. ولقد نويت أن أدرسها للصف الذي أعلمه، وحين يتاح لي السفر الى دمشق أقدمها للمعـارف للموافقـة عليها.. ولست أضمن النتيجة، فقد اعتدنا أن لا نستثمر الأصلح.. لقد أطلعني أحد الأساتذة الأفاضل على اختراعه حرفا جديدا لكتابة الهمزة في شكل كاف مقلوبـة لينقذ المتعلمين من ساعات طوياة مملولة تمر في تعلّم قواعد الهمزة كان الأفضل أن تصرف فيما هو أجدى في عصرنا هذا، عصر السرعة والقنبلـة الذريـة.. لقـد أعجبتني الفكرة ولكنها أهملت..

صورتك لأخي عبد الرحمن ما أروعها! لقد أثرت غيرتي.. فبـالله عليـك ألا تخلقين لي مناسبة لتهديني صورة لك؟

يا رجاء أتحبين أن تعرفي آخر أخبار هذا القلب؟

لقد حاك الزمن على منسجه آخر خيط من قصة "خطبتي المباركـة" لأحمـد، وسأخبرك بها للترفيه..

كنت مرتكزة الى طرف الطاولة تحت شجرة اللوز المزهرة أطالع وخالد فـي احدى المجلات، وكنا مستفردين في المنزل.. وفجأة لمحته يهم بكلام فيرده الزهد فيه.. وتوضحت منه جلية الأمر فقال:

- ألا تتعكرين لو سألتك هذا السؤال؟ فأجبته:
- اسأل ولي الخيار أن أجيب أو أهمل الرد.. قال وقد حرج:
- لو أحب أحمد أن يصل حبال ودك فهل ترضين بـه؟ وأجبتـه وعينـاي عالقتان في بطة تقترب مني:
- والله ما أدري!.. هو لم يصرم الود حتى يصله.. لقد افترقنا صديقين لأمر فوق طاقتنا.. كان على كلينا أن يواجه المشاكل التي أحدثها تـشردنا عـن فلسطين.. أنا اليوم تغيرت وتغيرت أهدافي وما عاد الزواج غاية لي!
- هل تحسبينه مخلصا؟ قلت:
- ما أحببته من قبل الاّ لإخلاصه.. أما الآن فلا أعرف جوابـا علـى هـذا السؤال.. ان الأوضاع التي نحن فيها غير طبيعية.. سأل:
- هل تغفرين للرجل فيما لو مال لغيرك؟ أجبت:

- لا أفرض في الرجل الملائكية وخصوصا مع البعد.. والقلـب يمكنـه أن يستلطاف ويميل الى أكثر من شخص واحد.. ولكن لا بد أن يكون لشخص غارب الحب.. وأحسب أن على الفتاة الحكيمة أن تسمح بطرف من قلـب رجلها للترويح عن النفس..
- ولكن اذا تطور الأمر من استلطاف الى خطوبة؟
- هذا يتوقف على شعور الفتاة نحو من تحب، فإنها تغفـر ان كانـت تـوده وصرم حبل الأخرى.. ولكن حبها يفقد على الأغلب لهيبه ولو غفرت..
- هل تحبين أحمد بشكل يؤثر عليك فقدانه..
- أراك قد أصبحت محققا.. وتضاحك معتذرا:
- عفوا ان كنت أتدخل بشؤونك، ولكنني أصبحت شابا وأتعلم من غيري..
- انني أغرمته لأنه الشاب الوحيد الذي عرفته في صباي.. وكنت غالبا أتأثر باخلاصه لي، ولكنني كنت أشعر في أعماقي أن الزواج منه لـيس بغـنم لي.. ليست أشواقه أشواقي، ولا رغباته رغباتي.. ما كنت لأباريـه قـوة جسم وما كان يباريني قوة روح.. كنت أعتصر نفـسي لأظهـره علـي، وأتحاشى أمامه أن أظهر ولعي بالأدب.. حتى تباشير قصصي التي نشرتها لم أكن أطلعه عليها خوفا من سخريته اللاذعة.. كنت بالنسبة اليه محبوبـة غالية ما دمت في رونقي وقوتي وفتنتي، والويل لي لو وهنت يومـا عـن بلوغ المدى الذي تبلغه الكواكب على الشاشة.. وهذا النوع مـن الرجـال متعب، سادر في غلوائه وفي حبه فجاجة، وليس من السهل تقويم هذا الميل فيه، وليس من السهل علي أن أعيش حياتي وفقا لما يرسمه خيالـه للفتـاة الكاملة.. كانت نفسيتي معقدة تجاهه.. يراوحها الحب والنفور ويتنازعانها.. وكثيرا ما كنت أفكر أن من الحكمة أن ننفصل.. ولكن مجرد تصور هـذا كان يورث لي أزمة نفسية، فتخونني شجاعتي ولا أقوى على فراقه.. أمـا اليوم فانني أشعر بروحي تحررت منه والنار المؤججة تخبو على مهـل.. وأشعر أن الحياة بالنسبة لي، على الأخص، ليست طويلة لإضـاعتها فـي ترويض من هم ليسوا على شاكلتنا.. لست أغضي بهذا القول من قيمتـه..

فوالله ان له شخصية جذابة معتدة بذاتها.. وكثيرا ما أثار اعجـابي، فلـه مزايا تستحق الإعجاب، وانه لجدير بأفضل فتاة. ولكن ظروفي وتطـوري الصحي والنفسي تحتاج الى صنف معين من الرجال ليست على غراره..
كان خالد صامتا لا يقاطعني فأردفت:

- على كل حال ما أزال في ميعة الشباب والفرصة رحبة أمامي، وفي نفسي أشياء يجب أن تظهر سافرة نقية.. أظن بأنني أسـتطيع أن أفعـل أشـياء مجدية.. حتى الحب والزواج يبدوان لي ضئيلي الكسب في هذه الفتـرة.. فأنا لا أريد أن أرهق بتبعة.. لا أشعر في نفسي بفراغ كبيـر.. ولكـن... صمتّ فنظر الي مستفهما:
- ولكن ماذا؟
- ولكن اذا تبين لي أنه يحفظ ولائي وأفجعه حقا بإعراضي، فلا أحسب أنني أستطيع أن أتخلى عنه..
- حتى لو نضب من قلبك الحب؟
- نعم يا خالد.. لن أتخلى عنه ان كان يحبني حقا!

وعاد خالد الى لهجته الهادئة الحكيمة:

- كانوا يخشون أن يجرحوك بالحقيقة، ولكنني أفهمتهم بأنك ستعرفين مهمـا طال الأمد.. كان يهوى غيرك، ويخشى الزواج بك إثر مرضك، ولكنه لا يعرف كيف يتخلّص.. لقد خطب الفتاة منذ أشهر وأظنه تزوج.. وسـألته عمن تكون الفتاة فأجابني وضحكت..
- هل تعرفينها؟
- انها ابنة جيراننا في القدس، وكانت في ثانوية المأمونية الجديـدة تجلـس خلفي تماما في الصف لتنقل عني ما أكتب في الإمتحانات، وكنت أسمح لها بذلك.. فنقلتها المدرسة ولم تنجح ذلك العام..
- لقد وصفها لنا سميح رفيق أديب وصفا دقيقا في رسالته وقال بأن لا مجال للمقارنة، ولكن الحب أعمى في بعض الأحيان..
- أعطني رسالة سميح لأقرأها!

- انها مع أديب.. وفي تلك الأثناء دعاه بعض أصدقائه فتركني وذهب..

لن أقول لك بأنني لم أبال.. ولو أن حبي لم يكن صرفا ولست اليوم بعاشـقة.. لقد أحسست بالألم يعصر مهجتي.. كلا يا رجاء! لايخطر لك أننـي أتـألم لفقـد أحمد.. فانني لم أخسر بفقده شيئا، وخسر بفقدي كثيرا.. ولكن أتظاهرا مـا كـان يبديه لي من وجد وإخلاص؟ أأخدع وتختلج الدماء في عروقي لحـب مزيـف.. رباه! انني لا أصدق أن انسانا يمكن له أن يمثل بكل تلك المهارة!..

وخلا دماغي الاّ من جملة أرددها "أحقا كان يمثل؟ أحقا كان يمثل!"

ربما.. فالإنسان حيوان محتال منافق.. لقد نسي وخطب ويريد أن يتزوج!..

لقد قرأت رسالة سميح.. كانت تقع في عشرين صفحة، وطبعا ليـست كلهـا عني، قرأت فيها ما يخصني.. وبدا لي سميح رغم لباقته "أنانيا يتجلبب بالغيريـة" وابن عم أحمد الذي استقى منه الأخبار شيطانا يرقص على الأنقاض، وأحمد لغزا له حلان متناقضان..

وعلى كل حال ما شأني بهم؟ انهم جميعا لم يتركوا في نفسي بعد ساعة الاّ ما يتركه حجر يرمى في بحر ساكن من دوائر سريعا ما تتلاشى.. ولا أكتمك أننـي شعرت في قرارتي بشيء من الإرتياح.. فما عاد يقيدني الوفاء لأحد بشيء..

ولعلي عندما أردت أن أكتب رسالتي اليك أحببت أن أوشيها بقصة مـستطرفة حتى تشغلك عن معاتبتي يا صغيرتي الحبيبة في أنني لم أنتهز الفرصة الربيعيـة لزيارتك..

والآن أقبلك بشوق يا أختاه وأتمنى لك العافية صديقة وفية على مدى الأيام!..

سلمى

* * *

أختي الحبيبة سلمى،

وضعت جانبا رباعيت الخيام بعد أن حفظتها عن ظهر قلب لما رددتهـا.. ان تطورا يفعل فعله في نفسيتي.. وأسئلة تتردد على شفتي لا أجد لها من الأجوبة ما أطمئن اليه..

قال لي أبو فراس في احدى زياراته مازحا: "من يصلّي يقرب أجله" وكنت في تلك الفترة أجد عزاء في الصلاة.. ولكنني فشلت.. لم أشعر بالغبطة تغمر كيـانني ولا اهتزت جوانحي للكلمات أرددها يوما بعد يوم .. بالرغم أنني حاولت أن أهب كياني في حرارة وإخلاص.. شعرت بالإختناق، وأخيرا أرسلت لدموعي العنـان أبكي بحرقة وألم.. لا، لا يمكنني أن أنافق وأقول شكرا لك يارب أنـك جعلتنـي عضوا أشل مهزوما في معركة الحياة.. ولا يمكنني أن ألح وأستجدي الشفاء.. فأنا أكره هذه الأساليب حتى في علاقتي مع الله..

سمعت السيدة نجاح هذه التي كانت تظاهرك بالود تدعو علي، وتهتف ضارعة الى الله عقب صلاتها أن لاينالني من الإبر سوى ألـم الـوخز وينالهـا الـشفاء فابتسمت.. ولا أكتمك أنني أحسست بنفسي تمج الوقوف الى قبلة يقف اليها مثـل هؤلاء المنافقين، ويحسبون أنفسهم أكثر قربا الى الله مني.. بل انها تشيع أننا لسنا من أم واحدة أتصدقين! ماذا فعلت لها؟ ألأنني أداوى بمال تجهدين نفسك وتحرقين دماغك للحصول عليه؟ ان الله يعلم ما ينطوي باطننا عليه فلم نعلن له رغباتنـا؟ وهو في غنى عن زلفانا وتملّقنا..

قلت لنفسي سأتغلب على ضعفي بقوة ايماني.. هذه هي الأوقات التي تمتحنين بها يارجاء! عام وتسيرين بنفسك نحو التكامل.. ولتكن هذه صلاتي التي تنبع من أعماق نفسي..

سأكون شخصية قوية، وأحفر على شفتي الهزء بالمـصاعب.. موجـة مـن الحماس تكتنفني.. ولن تزعزع ثقتي العواصف مهما اشتدت..

قال لي: "ألا تعلمين أنك الفتاة الوحيدة التي أقدرها فـي الـدنيا؟ ان صـداقتنا بريئة.. انها ترف فكري لكلينا يا رجاء، انني أتعلم منك كما تتعلمـين منـي.. ألا تكتبين لسلمى عن أحاديثنا اذ يجتذبني سريرك كل ليلة؟ فلنر رأيها في هذا الـذي جفا عن عينيك المنام.. لقد تصورت مع طبيبك.. وماذا في الأمر؟ هل فيه سـوء تصرف؟

وكان قد ألح علي في التقاط صورة، فقبلت وندمت وهالني الأمـر.. ورأيـت نفسي أمام مشكلة.. لا يكفي أن أرغب في تقويم نفسي.. بل علي أن أميز الـنهج

المستقيم.. وأعرف الحدود الفاصلة بين منطقتي الخير والشر.. ليس الخير واضحا لأول وهلة.. انه غامض شديد الغموض يا أختاه وخصوصا في الشؤون الصغيرة التي تكون في مجموعها ملامح وروح شخصيتنا!

ولحفت نفسي حتى الكتف اذ شعرت بقشعريرة برد بعد الإستحمام.. فما يزال شعري تحت الإيشارب الذي عقصته به بليلا.. ونظرت اليه بسهوم بدون أن أنبس بحرف.. ابتسم وهو يعتمد بيديه على حديد السرير وقال:

- ألا تزالين متحيزة للتخيير؟ فأجبته:
- نعم.. ولو أنها ليست من رأيي.. وأشرق وجهه:
- حقا! هل اختلفتما في هذا؟ كم أحب يا رجاء أن لا تكوني متحيـزة حـين تناقشين.. بل تناقشي على الطريقة العلمية الصحيحة.. انك لم تكوني تودين التصوير.. ولكنك تصورت أليس كذلك؟ أليس هذا يناقض نظريتـك فـي التخيير؟ ووجمت:
- أفعلت هذا لتقنعني برأيك؟
- كلا.. خطرت لبالي بشكل عفوي.. ولست أدري لم ذكرتها الآن.. لـمَ لـم تذهبي الى دمشق اليوم؟ قلت والبسمة على شفتي:
- لو لم ترتفع حرارتي بعد الإستحمام لذهبت.. لقد وعدت سهى أن نذهب الى السينما معا.. ضحك وقال:
- ولم لا تخرجين الى حرج الصنوبر في هذا اليوم الربيعي؟
- بالله لا تحنقني! أنت تعلم السبب.. أتحسب أننا نشفى دون أن نستنشق هواء الصنوبر؟ قال:
- انك لا تخرجين لأنني منعتكم.. ولكن من طبع الإنسان أنه يأبى أن يظهـر في مظهر الضعف.. تقولين هذا لمنفعتنا، وهذا أسرع لشفائنا.. والأحـرى أن تقولي أنني مرغمة على عدم الخـروج.. ولـيس علـي أن أختـار.. وابتسمت بسخرية:
- انك تضرب على الوتر الحساس.. قال:
- لقد تضايقت أليس كذلك؟ ان الصالح يذهب جريرة الطالح..

- ورغم ذلك فانهن يخرجن.. ولكنني لا أفعل لأننـي لا أحـب اغـضابك.. حرمت حتى هذا الترفيه البسيط، الإستمتاع بالربيع!.. قال وقـد تحمـس للنقاش:
- انك لاتدرين كيف تتبادل الرسائل بين الجنسين في الحرج وبين الصنوبر.. والمقابلات الغرامية بين الجنسين..
- دكتور ان منعهن من الخروج لم يقض على هذا، ومن يريد أن يعمل عملا غير لائق لا يبالي بالحواجز والعراقيل.. وعلى كـل لـست أفهـم وجـه المقارنة بين وضع مريض محكوم، وانسان حر سليم.. دكتور انني أوافقك بأن الإنسان مسير بمولده ومرضه وموته.. لقد كان هذا رأيي منذ البداية..
- وفي زواجه وفي دينه وطائفته وفي أشياء أخرى.. كيـف تفـسرين زواج مثقف رفيع الخلق من فتاة لا تحمل أية صفة تحببه بها.. وهو يعترف بهذا ولكنه يجد نفسه منساقا برغمه نحوها؟
- لا بد وأن يكون بها شيء ما جذبه اليها..
- اذن هو تزوجها مرغما..
- ولكن ليس هناك إرغام ما دام قد وجد فيها مزية..
- مزية! ربما جذبه سوء خلقها ورذالتها.. وليس كل النـاس أقويـاء الإرادة ومن النوع الحسابي.. وكلنا الإنسان الضعيف الذي يتورط تحـت وطـأة ظروف لا قبل له بها..

وهززت رأسي على غير اقتناع فضحك وقال:

- ستكبرين يا رجاء وتدخلين الحياة الإجتماعية وستوافقينني على رأيي..

وجرنا الحديث الى قصة "سارة" للعقاد فقال بأنه قرأها سبع مرات ويحـب أن يقرأها مرة أخرى، وأردف:

- انها المرأة التي يحبها الرجل..

ووددت لو أقرأها لأعرف مثله الأعلى في المرأة وسألته:

- ماذا تقرأ في هذه الأيام؟ قال "لاشيء" وسألته عن السبب فقال:
- لأنني يائس من حياتي الحاضرة.. نظرت اليه بعتاب:

- أنت الذي تعلمني التفاؤل بالحياة تقول هذا؟
- على كل حال لن أذهب من هنا حتى تذهبي.. سنروح سويا.. كم أحب أن أتخصص ولكنني لا أستطيع.. ألا تزالين مصرة على القول بأن الإنـسان مخير؟

على شفتي سؤال يتردد يصدني عنه الخجل والوجل.. انني أخشى أن أثير في نفسك ذكريات مؤلمة، ولكنني قلت لنفسي هذه المرة: "لتكن هذه الجرأة احـدى ذنوبك فأنا واثقة أن ستغفرها لك سلمى"..

ألم يحن الوقت لتفكري بالزواج يا أختي؟

رجاء

* * *